**الجاحظ**

**الأديبُ الظّريفُ**

**شوقي المعري**

**حياته:**

هو عَمرو بنُ بحرٍ بنِ محبوب، يُكنى بأبي عثمان، أما سببُ تَسميتهِ بالجاحظِ فلأنّ عينَيْه كانتا جاحظتَيْن أي ناتئتَيْن إلى الأمام.

ولد الجاحظُ في البَصرةِ (العراق) عام 159هـ/775م، ولمّا كبرَ قَليلاً وتَرعرع في أسْرتهِ طَلَبَ العلمَ وأحبّه، فَدَخَل في الكُتّاب وهو مثلُ المدرسةِ في ذاك الوَقت، وخالطَ العلماءَ الذين كانوا يَؤمّون الكتاتيبَ والمساجدَ، فأخَذَ عنهم العلمَ والمعرفةَ والأدبَ والشّعرَ، وهذا ما أفادَه في كتابة كتبه لمّا كبرَ.

عَمِلَ الجاحظُ في دَكاكينِ الكُتُبِ والوِراقةِ وصناعتِها وكان ينامُ فيها كي يَقرأَ ويُطالع كلَّ ما تقعُ عَيناه عليه فتثقّفَ ثقافةً واسعةً أضافَها إلى ثقافتهِ التي بَدَأ يكوّنها في الكتاتيبِ، ويأخذها من العلماءِ، فكان عنده عددٌ من المواردِ العلميّة التي نَهَلَ منها، وكانت كلُّها مناهل صافيةً عَذْبةً غنيّةً....

ولمّا كان فقيراً ولا يَستطيعُ أنْ يدفعَ مالاً كي يَتعلّمَ عَملَ في بَيعِ الخبزِ والسّمكِ في منطقةِ نهر سيحانِ بالبصرةِ وقد اسْتطاعَ أن يسدّ بعضَ الفقرِ بما كان يُتاجرُ به في هذا البيعِ، وهذا ما ساعدَه على أن ينصرف إلى مُجالسةِ العلماءِ في مَدينة البصرةِ، وسماع اللغةِ الصّحيحةِ في الأسواقِ الأدبيّة التي كانتْ قد اشتهرتْ وانتشرتْ في ذاك العصر. ويقالُ: لم تقعْ يدُه على كتاب إلّا أكمل قراءتَه، واستوعبَ ما فيه، واتّصل بعددٍ من علماءِ ذاك الزمان من شيوخٍ وأدباءَ وعلماءَ فأخذ عنهم علومَ اللغةِ والدِّين والحديث والفقهِ والأدبِ والظُّرفِ والمُزاح كما أخذ علومَ الكلامِ الفلسفيّة ، حتى وصلَ إلى مرتبة العالم الرّاوي الذي كانَ يَروي ما سمعَه من العُلماءِ ويُقدّمُه للآخرين، وهو كثيرٌ كثيرٌ ضَمّن قسماً كبيراً منه في كُتُبه التي ألّفها.

ويقال أيضاً إنّ الجاحظ تعلّم اللغة الفارسيّة، وأتقنها، وكانتْ قد انْتشرتْ في ذاك الزَّمان، والدّليلُ كثرةُ الألفاظ التي أوردَها منها في كتبهِ فهو لم يَدَعْ عِلماً معروفاً في أيّامه إلا ونظرَ فيه واطّلع عليه فقد درس الفلسفةَ والمنطقَ والرياضياتِ والتّاريخَ والسياسة والأخلاق وأبدع في علم الأدب واللغة، والأخبار والأشعار كما درسَ الحيوانَ والنَّباتَ والطّبيعة، وهذا ما بدا في مؤلّفاته التي كتبها. فقد ألّف عدداً كبيراً من الكتبِ التي تتّصلُ موضوعاتها بما كانَ قد حصَّله.

**شهرته:**

بدأتْ شهرةُ الجاحظِ تَتّسعُ وتَصلُ إلى مُعظمِ الأماكنِ بعد أن بدا عليه النُّبوغُ والذّكاءُ، وبعد أنْ بدأ يؤلّفُ كُتباً، ووصلَتْ شهرتُه إلى الخُلفاءِ والأمراءِ العبّاسيّين، فقرّبوه منهم، وكانَ أوّلَ هؤلاءِ الخلفاءِ الخليفةُ المأمونُ، الذي أُعجبَ به وبكتُبه، فأحضرَه إليه، وسَلّمَه مَنصباً لم يدمْ فيه أكثرَ من ثلاثةِ أيّامٍ، ولمّا انْتقل الحُكْمُ إلى الخليفةِ المعتصمِ استلمَ أحدُ أصدقاءِ الجاحظِ الوزارةَ، وكانتْ بينهما علاقاتٌ وثيقةٌ، وأقامَ معه يكتبُ ويُؤلّف، واسمُه ابنُ الزّيات وقد مدحَه الجاحظُ، وقَدَّم له أشهرَ كتبهِ التي ألّفها وهو (كتابُ الحيوان) وقد دَرَّ عليه مالاً كثيراً، وذاع صيتُه أكثر، فازدادتْ شهرتُه بينَ النّاس وصارَ بإمكانِه أن يَزورَ البلادَ الأخرى ليطّلع على ثقافاتِها ويزيدَ من علمهِ وخبرتهِ واطّلاعِه، فزارَ دمشقَ وأنطاكية ومصرَ.

وفي زمنِ الخليفةِ المُتوكّل تَنكَّرَ الجاحظُ لصديقهِ ابن الزّيات لأنّ المُتوكّل أزاحَ ابن الزّياتِ، فهربَ الجاحظُ خوفاً من أنْ يصيبَه أذى، لكنّ المتوكّل قبضَ عليه و أحضرَه إليه مُكبّلاً مُقيّداً، لكنّ أسلوبَ الجاحظِ الجميلَ وكلامَه المُزوّقَ وسُرعةَ بديهته ورجاءَه من المتوكّل أن يفكّ قيدَه كلّ هذا أقنعَ المتوكّل ففَكّ قيدَه، ثم اتّصلَ الجاحظ بخصمِ صديقه ابن الزّيات وهو القاضي ابن أبي دؤاد...وصارتْ بينهما علاقاتٌ وثيقةٌ، ولزمَ الجاحظَ هذا القاضي، وصار يؤلّفُ ويُقدّمُ له الكتبَ وكان كتابُ (البيان والتبيين) أشهرَ ما قدَّمه، وحصلَ بِسببِه على خمسةِ آلافِ دينارٍ.

وبعدَ ابن أبي دؤاد اتّصل الجاحظُ بوزيرِ المتوكّل واسمُه الفتح بن خاقان، وتوطّدت العلاقةُ بينهما أيضاً، وصارَ بينهما مراسلاتٌ، وصداقةٌ ومودّةٌ ممّا دفعَ الجاحظَ إلى أنْ يقدّمَ له كتبَه التي كان قد ألّفها.

عاشَ الجاحظُ في كَنفِ عددٍ من الخلفاءِ العباسيين والولاةِ والوزراءِ حتى تجاوزَ الثمانينَ من عمره، ويقال: إنّه أصيبَ بمرضِ يُدعى النّقرسِ ويقال بل أصيب بالفالجِ في أواخر حياته ممّا جعلَه يلزَم بيتَهُ ولا يخرجُ منه، وكان آنذاك في البصرة مدينته التي وُجِدَ فيها، وظلّ فيها إلى أنْ ماتَ عام 255 هـ/868م وهناك خبرٌ طريفٌ تتناقلُها كتبٌ كثيرةٌ عن سببِ وفاته وهو أنّ مكتبتَه قد سقطَتْ عليه فماتَ، وهذا الخبرُ ليس بصحيحٍ وقد يكونُ مُناسباً لطرافةِ الجاحظِ، وسخريته فأرادوا أن تكونَ وفاتُه طريفةً أيضاً. بقيَ أن نشيرَ إلى أنَّ الجاحظَ لم يتزوّجْ في حياتهِ ولم يُنْجبْ أولاداً.

**صفاته:**

تكادُ شخصيّةُ الجاحظِ أن تكونَ من أبرزِ الشخصيّاتِ الأدبيّةِ في العصورِ القديمةِ لما تَميّزت به من صفاتٍ خاصةٍ، فكثرت الأخبارُ والطرائفُ حولَه، وصارتْ للطُّرفةِ والضحكِ في كتب التراثِ وكتبِ المعاصرين فالجاحظَ كان جهمَ الوَجْه بَشعاً جدّاً، ومُشوّه الخلقة، وكانت عيناهُ جاحظتينِ بارِزتينِ إلى الأمام، قصيرَ القامةِ...حتى إنه هو كانَ يسخرُ منْ هذه الشخصيّة.

لكن هذا لا ينفي عنه صفاتِ خفّة الرّوح ِ وحسنِ المعاشرةِ والصُّحبة، وظرفِ الحديثِ، والنُّكتة الجميلة التي تصدرُ منه بعفويّة من دون تكلّف، لأنّه كان مطبوعاً على السخرية والتهكّم، لكنّه لم يكنْ يؤذي الآخرين بهذه السّخرية، إنّما كانت من رُوحِ الدُّعابة، والنَّفْسِ المرحةِ، وربما كان هذا من قبيلِ التعويضِ عن بشاعته وقُبحه حتّى إنّه كان كثيراً ما يروي أخباراً وطرائفَ وحكاياتٍ تتّصل به شخصيّاً، وتعيبُه هو.

**من الأخبارِ الطريفةِ في دمامة خُلُقه:**

أنّ الخليفةَ المُتوكّل على الرّغم ممّا أعطاهُ من مالٍ عن طريقِ وزيره لم يُقرِّبه منه، حتى إنّ الجاحظَ نفسه يقول: "ذُكِرْتُ للمُتوكّلِ لِتأديبِ بعضِ ولدِهِ فلما رآني اسْتَبشَعَ منظري، فأمر لي بعشرةِ آلافِ درهمٍ وصَرَفني".

ومن هذه الأخبارِ الطّريفةِ أن امرأةً جاءتَ الجاحظ وطلبَتْ منه أن يرافقَها في مشوارٍ قصيرٍ، فحقّق لها طلبَها وسارَ معها حتّى وَصَلا إلى صائغِ ذهبٍ، فقالتِ المرأةُ للصّائغ: مثلَ هذا، وغادرَتْ معَ الجاحظِ..فتركَ الجاحظُ المرأةَ وعادَ إلى الصّائغ وسألَه: لم أفهمْ ما أرادتْ هذه المرأةُ، لقد صَحبتني إليك وقالتْ لك هذه الجملة "مثل هذا" فماذا قصدتْ؟ فأجابه الصائغ، لقد جاءتني هذه المرأة يوماً وطلبتْ منّي أنْ أنقشَ لها على خاتمٍ صورةَ شيطانٍ، فقلتُ لها: لكنّني لا أعرفُ صورةَ الشيطانِ، فقالت: أنا أحْضِرُها لك، فما كانَ منها إلّا أنْ أحضرتْك.

ومع كلّ ما سبق فإنّ الجاحظَ كان شديدَ الذّكاء...واسعَ المعرفةِ والثّقافةِ، لكنّه كان يحبّ التكسّب بالمالِ، فكان يكتبُ الكتبَ ويقدّمُها لمن يهمُّه موضوعُ الكتابِ، فالكتابُ الذي يدافعُ به عن العربِ يَهديه إلى من أصلُه عربيّ، والذي يدافعُ فيه عن الفرسِ يَهديه إلى فارسيّ الأصل، فكانَ يعرفُ كيف يصلُ إلى الآخرين من خلالِ كُتُبه..

وقد اتّصفَ الجاحظُ أيضاً بأنّه كان يحبُّ اللهوَ والمتعةَ والمجونَ وسَماعَ المغنّين والمغنّيات والطَّرب والموسيقا...

إنّ تَميُّزَ شخصيّةِ الجاحظ كَثّرتْ من حُسّادِه وخُصومِه فاتَّهَمُوهُ تُهَماً كثيرةً أشهرُها أنّه زنذيقٌ، كما أكْثروا منِ انتقادِ شخصيَّتِه وكتبهِ لذلك اضطرّ إلى أن يردَّ عليهم ويناقِشَهم في مناظراتٍ وحواراتٍ كثيرةٍ امتلأتْ بها صفحاتُ كُتبهِ.

**مؤلفاتُه:**

صَنَّف الجاحظُ عدداً كبيراً من الكتبِ، وقد اختلفَ القدماءُ في عددِها، لكنّ المرجَّح أنّها زادتْ على المئةِ، وكانت متفاوتةَ الحجمِ بين الرسالةِ الصَّغيرةِ، وبينَ الكتابِ المَوْسُوعيِّ الكبيرِ الحجمِ، فما ألّفه الجاحظُ يُعدّ مكتبةً في حدّ ذاتِها، وهذه المكتبةُ ضمّت عدداً من العلومِ والمعارفِ المتنوعةِ والمختلفة التي أجاد الجاحظُ فيها، وكانت تتميّزُ بعددٍ من المميّزات أهمُّها أنها كانت خصبةً وغنيّةً فيما تضمّنته وحوَتْه من مادّةٍ علميّةٍ، وقد كتبَ الجاحظُ في الأدبِ، واللغةِ، والفلسفةِ، والعقائد الدينية، والأخلاق، وصفات الإنسان، والعلوم الرياضيّة والحسابيّة، والحيوانِ، والطبيعة والطبّ والفلك والموسيقى، وكلّ ما يتّصل بالحياةِ الاجتماعيّة الأدبية والثقافية التي كانت في عصرِه، وما سبقَ عصرَه، فهو كان قد تعلّم تلك العلومَ ومارسَها وأتقَنَها.

كانتْ مؤلّفاتُ الجاحظِ مَطلوبةً من قبلِ النّاسِ فأقْبلُوا عليها، وما كان الكتابُ يصدرُ حتى تتلقّفَه الأيدي وتَنْسخَه وتَقرأه وتُهديَه، فَينتشرَ في كلِّ البلادِ والأمصارِ، وهذا ما زاد من شهرة الجاحظ الأدبية فحقّق منها ثروةً ماليةً كبيرةً بعد أن كان فقيراً في صغره، ولاسيما ما حصّله من كتبهِ المشهورة "الحيوان" و"البيان و التبين" و"البخلاء" هذا غير ما كان ينالُه من بعضِ الأعمالِ الأخرى والجوائز التي أعطاها إياه الخلفاء والقادة...

أمّا أشهرُ كتبه فثلاثةٌ، كتابُ "الحيوان"، وكتابُ "البيان والتبين"، وكتابُ "البخلاء"، وسنقدّمُ لك مُوجزاً مُفيداً عن كلِّ كتاب.

**كتاب الحيوان:**

يُعدّ كتابُ الحيوانِ من أوائلِ الكتبِ الجامعةِ التي خُصِّصت للحيوان وقد استفادَ الجاحظُ من بعضِ الرّسائلِ والكُتبِ المُختصرةِ التي أُلِّفتْ في الحيوان، لذلك جاءَ الكتابُ مُوسّعاً ومُفصّلاً، قسَّمه الجاحظُ إلى سبعةِ أقسامٍ، تناولَ في القسمِ الأوّل بعض قضايا الكتابةِ والكتبِ والتأليفِ وما يتَّصلُ بها، وخصَّ به الدّيكَ والكلبَ بقسمٍ منه، ثمّ تابعَ الكلامَ على الكلبِ في القسم الثاني كلّه تحدّثَ فيه عن أنواعِهِ وخصائِصِه وصِفاتِه وفوائِده وغَدْرِه وأمانَتِه وكلّ ما يتّصل به، وفي القسم الثالث تكلّم على الحَمَامِ والذُّبابِ والغِربانِ والخَنافسِ والخفّاش وغيرها...وأتمّ الكتابَ ذاكراً فيه كلّ الحيواناتِ، ولكن بتفاوتٍ من حيث الطُول والقصر...وقد استفاد الجاحظ في تأليفِ كتابِه هذا من كتبٍ كثيرةٍ، سبقته وقرأها، وقد ضمّن الكتابَ آياتٍ من القرآن وأفعالاً وأشعاراً وأقوالاً فكانَ الكتابُ بحقٍّ موسوعةً متنوّعةَ المعارفِ.

**كتاب البخلاء:**

هو من أشهرِ الكتبِ التي تتحدَّثُ عن البُخلِ والبُخَلاء، فقد صوّرَ الجاحظُ فيه أخلاق البخلاء وطرقَهم في الحياة وكيف يقتصدونَ، وضمّنه قصصاً كثيرةً طريفةً عن أشهرِ البخلاءِ الذين كانوا في عصره ومثل كتبهِ كلها لم يكن الكتاب خاصاً بالبخلاءِ فحسب، بل ضمّنه بعضَ المعارفِ والعلومِ الأخرى، ولاسيما الأدب والتاريخ وأنواع الملابس والطعام والأحوال الاجتماعية، فصوّر عصرَه خيرَ تصويرٍ، مُضمِّناً إيّاه الطّرائفَ والحكاياتِ الطريفةَ عن الشخصيّات التي ذكرها في كتابهِ...

**كتاب البيان والتبين:**

من أشهرِ كُتبِ الجاحظِ التي تتصّل بالكلامِ والمنطقِ والفلسفةِ ضمَّ فصولاً كثيرةً من الخطبة الرّائعة والأخبارِ المتنوعة وخصَّ علومَ البيانِ والبلاغة والفصاحة بجزء كبير من الكتابِ، ولكنْ يُلاحظُ على الكتاب أنَّ الجاحظَ لم يضعْ خطةً منهجيةً ولا تبويباً حَسَناً بل تفاوتت الأبوابُ فيما بينها وامتزجتِ المعارفُ فقد يكون يتحدّثُ عن البلاغة وإذ به ينتقل إلى قصص الحَمْقى ونوادرهم، أوالخطابة والوصايا فينتقل إلى الرسائل، أو الشعرِ أو السّجع...أو أي موضوع آخر، وهذا ليسَ خاصاً بالجاحظِ أو بهذا الكتابِ من كتبِ الجاحظِ، بل كان في معظمِ كتبِ تلك العصورِ التي لم تقمْ على منهج واضحٍ وتبويبٍ مُحدَّدٍ كما يفعلُ المعاصرون في هذا الزمن.

وبعد فهذا الجاحظُ في شخصيّته المُتميّزةِ وطرافتهِ وعلمهِ وأدبهِ وبعض كتبه المشهورة.